البناء
السنة السابعة / الأربعاء / 8 تموز 2015 / العدد 1826
Seventh year / Wednesday / 8 July 2015 / Issue No. 1826

ستٌ وستّون سنة على استشهاده... وما زال حضورُه مُشعّاً وعقيدتُه وضّاءةً

أن تكتب عن إنسان نابغة، ربما يكون ذلك يسيراً. وأن تكتب عن شاعر أو قاصّ أو روائيّ أبهر الناس، ربما تجد في ذلك متعةً. وأن تكتبَ عن عبقريّ، ربما تتعثّر قليلاً، لكنّك ستجد السبيل إلى الخلاص في نهاية المطاف. وأن تكتب عن عباقرة اجتمعوا في إنسان واحد فهذا صعب. أمّا أن تكتب عن أنطون سعاده، فحتماً أنك ستظنّ بدايةً أن السبيل إلى ذلك يسيرٌ، وحتماً ستشعر بتلك المتعة التي تعتري من عشق الكتابة، ومن المؤكد أنك ستتعثر وستجد صعوبة في ذلك، لأنّ الحديث عن أنطون سعاده يطول، كون هذا القائد الفذّ، لم يكن رجلاً سياسياً فحسب، إنما كان القائد والزعيم والشاعر والناقد والإعلاميّ و... تطول اللائحة.

في ما يلي، آراءٌ ممّن سلكوا سبيل الكتابة عن سعاده، في الذكرى الـ66 لاستشهاده.

مسؤولية تمّوز

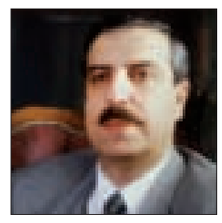

■ ربيع الدبس

يصطخب 8 تموز، في دورة حياتنا، ذاكرةً متأجّجة لا ذكرى باردةً. يجتاح فينا الفكرَ والوجدان. فما أعْظَمَ العقل حين يتنكّب أيضاً دور الضمير، وما أصْدَقَهما حين تصطبغ مسؤوليتُهما بدم الشهادة. وإذا كان فعلُ الوجود يستثير الغياب، وفعلُ الغياب يستثير الوجود، فلأنّ العباقرة كواكبُ خارج المدار، يَعبَق بهم فضاءُ المعرفة الحق والوجود الخلّاق.

لم تنبع قوة الرائد النهضوي أنطون سعاده من جَمعه، دستورياً، بين السلطتين التشريعية والإجرائية، بقدر ما نَبَعَتْ من قدوته الفكرية والنضالية والمناقبية. ذلك أن القائد هو الشخصية المحورية في الحزب والمؤسسة والحركة والتيار، في آفاق النجاحات وتبعات الإخفاقات، في عمليات التنظيم والإنابة والمراقبة والمحاسبة، في تحفيز الإمكانات وإدارة الطاقات، في العمل السياسي الاستشرافي العملاني، البعيد عن النظرة الرومانسية والمراهقة السياسية.

إن القائد، الذي تتماهى صفاته في شخصية سعاده مع المؤسس والزعيم والمعلّم، هو محرّك الجميع والنموذجُ الأرفع. هذه هي حالُ القادة الرسوليين، الذين يبتكرون المفاهيم الرؤيوية ويَحْيَوْنها ذهناً وإيماناً وسلوكيات، كما يجسدونها مجاهدةً أخلاقية متواصلة، هي الشرط الطوعيّ الأمثل لصدقية المبادئ وأهلية حامليها.

باستقامة القائد يستقيم الأفراد وتستقر المؤسسة، كما يستوي العمل والإنتاج واستثمارُهما للمصلحة القومية العليا. ولعل الجانب الأهم في عملية إعداد المسؤول (المفوض، المدير، الناظر، المنفذ العام، المندوب، العميد، إلخ) هو البناء الروحي ـ النفسي ـ القِيَمي لشخصيته، من دون أن ننسى المعنى العميق الذي تنطوي عليه ثقافة العضوية في الحزب السوري القومي الاجتماعي، بما هي انتماء كلّيّ إلى بيئة اجتماعية ـ إنسانية مغايرة، ينسلخ فيها المنتمون عن ولاءات لاشيئية متخلفة من جهة، في حين أنهم من جهة أخرى يعتنقون ولاءً جديداً جوهرُه النهضة المنبعثة والتغيير الخلّاق.

لقد أجمع علماء الإدارة والتربية على أصول إدارية ـ قِيَمية خمسة، تتفرّع عنها قيم فرعية أخرى، وهذه الأصول هي:

1 ـ الحكمة التي من دلالاتها حُسْن التدبير، الاستثمار الأمثل للموارد والطاقات، الرؤية الاستراتيجية، الموضوعية، الرأي الثاقب، إلى آخره.

2 ـ الشجاعة، وتتضمّن الحزم، الإقدام، المروءة، ضبط النفْس، الكرم، الشهامة، الثبات.

3 ـ العفّة، وتتضمّن الكفّ عن المنافع الشخصية، القناعة، الإيثار، الصبر.

4 ـ العدل، ويتفرّع عنه العمل بقاعدة الثواب والعقاب، التقدير السديد، الاستقامة، التزام الدستور والقوانين.

5 ـ الصدق، وتتفرّع عنه قيم فرعية مثل الشفافية، الأمانة، الإخلاص، التطابق بين القلب واللسان، احترام النفْس والآخرين وفقاً لمنطق المؤسسات الدستورية.

وقد جَزَمت الثقافات المختلفة بأهمية هذه الأصول وضرورة الاحتكام لأخلاقياتها، خصوصاً في شخصية المسؤول والقائد، حيث يَحْدُث خلل كبير متى فُقِد أحدها، لا على مستوى المسؤول فقط بل على مستوى الأفراد والمؤسسة وبالتالي على مستوى العمل ككل، فتسود الفوضى الدخيلة على النظام الأصيل، ويعمّ التفلت عوضاً عن الانضباط... لذلك تمسّك سعاده بهذه الأصول المبدئية العامة وعَزّزَها بأصول دستورية غائيّة وبقواعد أخلاقية جديدة، معمّدة بالعقيدة الهادية، وعاملة لتحقيق المصالح القومية العليا، بمُفاعِل الإنسان الجديد الذي تستحيل دونَه إقامةُ النظام الجديد. قالَ سعاده: «كلّ من مشى في الحق قبل أن يمشي الكلّ، صار قدوةً ومُعَلماً». (جريدة الزوبعة في 1 تموز 1943).

كبيرةٌ هي مسؤولية تمّوز، ليس فقط بداعي الخسارة الكبرى المبكرة لاستمرار قيادة سعاده، الفكرية والميدانية، الحزبية والقومية، لعملية البناء والتوعية والكفاح ضد أمراض الداخل وأعداء الخارج... إنها كبيرة لأنها تُلقي على الحركة النهضوية مهمة الاستمرار التصاعدي في خطّ الصراع. والحزبُ السوري القومي الاجتماعي قبلَ الاضطلاع بهذه المهمة الجليلة منذ تأسيسه، بل بمجرّد تأسيسه. وتابع بعد استشهاد سعاده يحمل الشعلة الوضّاءة في ملحمة نضاله، وما زال يكتب كل يوم في ديوان عطائه صفحات مشرقات من التنوير العقلاني، حروفُها مسكوبة من شلال الإيمانَ والبذل والتفاني والاستشهاد.

أنطون سعاده الرؤيوي

■ بلال شرارة

لا بدّ من التأكيد بدايةً أنّ أنطون سعاده الزعيم فكرياً، كان استباقياً ورؤيوياً، وأنّه لمس أن «إسرائيل» (المشروع والفكرة) قبل الدولة ويهوديتها، تشكّل قنبلة أو قنابل عنقودية، ستنفجر بالتتابع في جسد الأمّة. وأن الأمر لن ينتهي بـ«نكبة الشعب الفلسطيني» ثمّ بـ«نكسة 1967» التي وقعت بعد استشهاده. وهو رأى أنّ الأمور ستتجه بالواقع إلى نتائج مريعة في ظلّ أنماط السلطات العربية (المتفرّقة)، والتي تغرق، إضافة إلى الفساد في مشكلاتها (السياسية والاقتصادية – الاجتماعية) وبالأساس الثقافية، إذ لا تسمح بصوغ تعريفات موحّدة للوطن والمواطَنة، ولا إقرار لاتفاق قُطري أو عربي على شرعة وطنية أو عربية لحقوق الإنسان، تحمي حقوق المواطن الشخصية وتتيح للمجتمعات العربية والدول العربية (بالمفرّق أو الجملة) التفرّغ لمواجهة الخطر الصهيوني.

الخطر الصهيوني. الهمّ. كان شغل سعاده الشاغل، وهو في صوغ مشروعه السياسي، كان يريد أن يحفظ سوريه للسوريين الذين هم أمّة قائمة موحّدة في التاريخ والبيئة الطبيعية والجغرافيا والمجتمع، وهو إنما كان يعني الرفض المطلق لإنشاء كيان صهيونيّ، المرتكز على مخطط «أرض بلا شعب لشعب بلا وطن». وكان يرى ويلمس أنّ المشروع الصهيوني إنما يهدف أوّلاً إلى تفريغ فلسطين من شعبها، واستيطانها، وثانياً إلى إرباك النظام العربي العام في المنطقة من خلال مشروع «أرضك يا إسرائيل من الفرات إلى النيل». وهو (سعاده)، وضع أساساً لمواجهة هذا المشروع عبر نهضة سورية قومية اجتماعية، لأنه كان يدرك أنّ المغرب العربي أو شمال أفريقيا ليس معنياً باستثناء مصر (لأسباب جغرافية ومصلحية) بالمسألة الشرقية، وأنّ الخليج يعيش هاجس النفط وأمن طرق الإمداد فيه، وأن الجوار الإقليمي المسلم يعيش هواجس الامبراطورية وسيفها الطويل، وأنّ الغرب سيبقى يخطط للسيطرة على مواردنا البشرية والطبيعية.

انتبه سعاده ودفع حياته ثمناً لذلك، لأنّ سوريه مهدّدة في حاضرها ومستقبلها بمشاريع خطيرة وافدة تريد تغيير وجه الشرق الأوسط بعد تقسيمه، أولاً عبر «سايكس ـ بيكو». وثانياً، وقد أثبت الحاضر أننا نواجه مشروع تقسيم المقسّم وتوزيع بلداننا مغانم على مائدة الأعراف والجهات والفئات والطوائف والمذاهب في إطار مشروع ما يسمّى «الشرق الأوسط الجديد أو الموسّع».

أراد سعاده عبر مشروعه الفكري والتنظيمي أن يستنهض السوريين معتبراً أنّ فيهم قوة لو فعلت لغيّرت مجرى التاريخ. وهو حاول أن يعمّم معرفة على مستوى النطاق الجغرافي لمشروعه يحفظ من خلاله الجغرافيا السياسية لمنطقة فكرته (سوريه الطبيعية). معتبراً أنّ نشر وعي حول أنّ «المجتمع معرفة والمعرفة قوّة»، هو الأساس في مواجهة التهديد القائم للأمّة السورية عبر «سايكس ـ بيكو» ومشروع «إسرائيل اليهودية ـ الكبرى».

وحاول سعاده حيّاً وشهيداً استنهاض مكامن القوة البشرية في التفكير دائماً، وفي الشروع بامتلاك القوة. ففي حياته عمل حثيثاً على بناء مشروعه الايديولوجي والسياسي والتنظيمي، وعندما نجح الغرب والصهاينة في جعله هدفاً شخصياً، واستعمال النظام اللبناني للاقتصاص من أفكاره باعتباره زعيماً محلّياً لبنانياً انقلابياً، رفض سعاده محاولات «تهريبه» من السجن، و«تخليصه» عن الإعدام، واعتبر أنّ استشهاده شرط أساسيّ لنجاح عقيدته.

في حياته، قامت طلائع القوميين الاجتماعيين بمقاومة مشروع «إسرائيل»، ودأب حزب سعاده على هذا النهج إلى هذا اليوم. كما دأب على مقاومة مشروع تقسيم المقسّم، ومحاولة النيل من وحدة سورية الراهنة ثمّ تهديد لبنان اعتباراً من أنّ مصلحة سورية فوق كل مصلحة، وأنه سوف لا يبقى استقرار في النظام العام للبنان والمنطقة إذا ما انهار المركز.

كان سعاده لا يريد، واليوم يجب ألّا نريد، طمس حقيقة سورية، ويجب أن نجابه الحرب العالمية ـ الإقليمية وحرب بعض النظام العربي لإسقاط سورية وتوزيعها مغانم في الجغرافيا والسياسة، ولا نقول في الدين لأن هناك استغلالاً واستغفالاً للإسلام السياسي في حرب تدميرية.

لم يفرّق سعاده في حياته بين الحروب الآشورية والكلدانية الداخلية للسيطرة على جميع سورية، ويجب أن نستنفر اليوم إزاء مشروع الهيمنة على سورية باسم «داعش» ومشروع الولاية في لبنان أو فلسطين أو الأردن أو سيناء، وإن كان الآشوريون والكلدانيون غير مرتبطين بمشروع أجنبي خارجي للسيطرة على مواردنا.

أنطون سعاده الزعيم، يجب أن يُقرَأ، وهو حاول في حياته واستشهاده نشر وعي حول ما نواجهه اليوم، ليس فقط في واقع التقسيم، إنما في واقع الدولة المطلقة. وما يراه سعاده أننا يجب أن نحرّر أنفسنا أوّلاً من غبار ثقافات وافدة، وما هو ليس بحقائق تاريخية، وأن ننتبه إلى أننا نريد تحرير فلسطين لأنها جزء منّا. كما يقول إننا عندما نهتمّ بمصير فلسطين، لا نهتم بنقطة واحدة. وهو كان يرى ـ على خلفية انكشاف مشروع الدولة اليهودية ـ أن الصراع بيننا وبين اليهود لا يمكن أن يكون فقط في فلسطين بل في كل مكان فيه يهود وقد باعوا هذا الوطن وهذه الأمة، وذلك لأن خطر اليهود لا ينحصر في فلسطين، بل هو يتناول لبنان والعراق أيضاً.

طبعاً، لا تكفي كلمات محدّدة لمقال صحافيّ للكتابة عن فكر سعاده، أو عن سعاده مفكّراً. وما يتضمنه هذا المقال، مجرّد مساهمة محدودة في اعتبارات الوقت أيضاً.

الحاضر دائماً في العقول النيّرة

■ علي القيم*

إن المفكر والفيلسوف أنطون سعاده، كان واعياً رسالة هذه الأمة ووحدتها الطبيعية ووحدة الهلال الخصيب، وقد اثبتت الاكتشافات الأثرية في هذه البلدان والتي تعود إلى أكثر من مليون سنة، أن هذه الحضارة ووحدتها الفكرية والميثولوجية استمرت على رغم كلّ الظروف والأخطار التي مرت بها عبر التاريخ. وأثبتت أن رؤية سعاده البنّاءة كانت واضحة وواعية في مدى العمق الحضاري والثقافي والفكري الموجود في هذه الأرض. لذلك، لاقت دعوته القبول والترحيب من جميع الفئات التي تتمتع بفكر حضاري ورؤية واضحة.

أنطون سعاده استشرف آفاق المستقبل، وكان واعياً كلّ ما ينتج عن هذه الدعوة وعن حيوية الإنسان السوري بكل أبعاده ومسمياته.

فكر أنطون سعاده لم يكن يوماً من الأيام غائباً عن العقول النيّرة والمثقفة، إنما ما زال يحتلّ المكانة الكبيرة من تفكيرنا. فلو أخذنا من فكر الزعيم سعاده جزءاً بسيطاً وطبقناه على أرض الواقع، لحقّقنا لهذه الأمة الكثير من أهدافها وآمالها المشروعة، وهو بداية الانقاذ الحقيقي لكل ما تعانيه الأمة من تشرذم وتفكّك ونزعات تخريبية. وللأسف، لقد مرّ العمر ولم نتّعظ من التجارب والأحداث التي مرّت بها هذه الأمة في عصرها الحديث، لذلك لحقت بها المصائب. فما يجري اليوم في منطقتنا مدروس ومخطّط له منذ سنين. ولـ«إسرائيل» الدور الأساس فيه. فهي اليوم تعيش مجدها الذهبيّ وحلماً كبير من أحلامها التي لم تستطع تحقيقها من خلال الحروب، إنما استطاعت الولوج إليها من خلال تفكيك الدول. وللأسف، إن الشعوب والحكومات العربية ـ على رغم وضوح الفكرة والهدف ـ تلقفت الطعم حتى الثمالة، لا بل إضافة إلى ذلك، تعاون بعضها مع الكيان الصهيوني لتدمير البشر والحجر ومحو كل أثر حضاري وثقافي لهذه الأمة.

إنّ الزعيم سعاده كان بعيد النظر في مسألة الأديان السماوية، فرأى أن الدين يوحّد ولا يفرّق. وأنّ الدين محبة وتسامح وتعاضد وفكر خلّاق، لذلك من يستقرئ الفعل الحضاري من هذه الأديان، يجب أن يعرف أنها تضيف إلى الآخر وتؤمن بالآخر. فهي تنادي بأن الله محبة والوطن للجميع، لذلك كانت دراسة الزعيم سعاده في ما يخص هذا الموضوع، دراسة دقيقة تهدف إلى خلاص الأمة.

*معاون وزير الثقافة السوري

الفادي الثالث

■ طارق الأحمد*

إذا نظرنا إلى ماهية عوامل تحقيق المشروع القومي الذي يهدف إلى توحيد أمّتنا، علينا أن نقارن الفترة التي شهدت تحرير هذه الدول من الاستعمار، والأخطار التي كانت موجودة سابقاً، بالأخطار التي نواجهها اليوم. فالإجابة على هذا السؤال يجب أن تكون علمية ودقيقة. حجم الأخطار التي تمر بها المنطقة اليوم أكبر، وحجم الهجمة الاستعمارية أكبر وأخطر، حتى حجم المجازر. فما شهدناه في السابق من مجازر صهيونية بحقّ الفلسطينيين كمجزرة دير ياسين، يعتبر أقل دموية وبشاعة من المجازر التي ترتكب اليوم في سورية تحت العنوان الطائفي والمذهبي. لكن الفارق الكبير بين ذلك الوقت واليوم، حجم الوعي لدى الأجيال. هذا الوعي موجود في فكر أنطون سعاده الذي ما زال حاضراً لأنه جاء نتيجة التراكم العلمي القومي، وأيضاً نتيجة تضحيات الشهداء ابتداءً بفداء أنطون سعاده وتضحيته، إلى سعيد العاص ثم سناء محيدلي إلى كل شهداء الحزب السوري القومي الاجتماعي الذين استشهدوا على الأرض السورية في صدد وجسر الشغور والجولان والسويداء وغيرها من المناطق، وأيضاً كل شهداء سورية. وبالتالي، أقول إن دماء هؤلاء هي الرصيد الكبير الذي سيحافظ على سورية ووحدة أراضيها. لذلك، إنّ فكرة سورية الموحدة والطبيعية التي نادى بها أنطون سعاده، عزّزها هذا الدم. فالناس لا يلتفتون إلى الفكر المجرد من عقيدته فقط، إنّما إلى التضحية المعزّزة بصحة العقيدة.

إنّ أنطون سعاده هو الفادي الثالث الذي يحمل رسالة وفكراً، وعزّزهمت بتضحيته الجسدية بعد السيد المسيح والأمام الحسين.

وبالتالي، نحن نتحدث عن أمر عميق ذي علاقة بالوعي الفطري الموجود لدى الإنسان. هذا الوعي الذي يحرّك حسه الوطني والقومي ويحرّضه للدفاع عن أرضه من دون مساومة أو تردّد.

وأنا مؤمن أن فكر سعاده موجود وسيبقى، وما وجدته في فكر سعاده ويعتبر علامة فارقة، أن الزعيم عرّف الأمة بشكل صحيح وعلميّ وعميق، كما عرّف القومية أيضاً بشكل صحيح ودقيق.

*عضو المكتب السياسي في الحزب السوري القومي الاجتماعي

أنطون سعاده حيوية وجود مستمرَّة

■ وجيه فانوس*

لا أقول إننا في هذه الأيام نتذكر أنطون سعاده. فأنطون سعاده ما برح ينبض حيويّةً في وجدان كثيرين. وما انفك يفعل بآرائه ورؤاه في كثير من مفاصل العيشين الوطني والسياسي لناس بلادنا. أنطون سعاده لا يغرب عن الوجود بفعل الموت، إذ هو مفكّر رؤيوي يظل حيّاً طالما رؤيته صالحة للحياة وفاعلة فيها.

قبل عقود من اليوم، أطلّ أنطون سعاده على هذا العالم بثقافة متميزة، ثقافة عبَّ أصولها ومحفّزاتها من مناهل مختلفة، بيد أنه تمكّن من إعادة صوغ ما عبّه، والإضافة إليه ليشكّل عطاءً أساساً تزدهي به دروب هذه الأمة.

انتبه سعاده، ومنذ البدايات الأولى، إلى خطر المؤامرة الصهيونية، وعبّر عن هذا الانتباه بكثير من الوضوح والجرأة والرؤية. ولعل ما عبّر به وعنه، في هذا المجال، شكلاً أحد عناصر السعي الدؤوب للفتك به وإيصال جسده إلى الموت. واليوم، فإن أكثر ما انتبه إليه سعاده من هذه المؤامرة الصهيونية وأشار إليه وناقش فيه وحذّر منه ورآه، يقف ضمن أساسيات ما تتعامل معه الرؤيا الوطنية والسياسية في سوريا والعالمين العربي والإسلامي.

وقبل أقل من قرن من الزمن ببضعة عقود، أطلّ أنطون سعاده منظّراً في مجالات النقد الأدبي، وساعياً إلى تطبيقات ما ينظّر له. تحدّث سعاده عن مسؤولية الأديب والأدب في عيش الأمة والتعبير عن عيشها والسعي إلى رؤى تجسّد فعل الإشراق في الآتي من زمنها؛ وكان في مرحلة، كان كثير من الشعر العربي يغرق فيها في خضمّ بحار المدح والتقليد والصنعة الموات.

ومن أفكار سعاده ورؤاه انطلقت كوكبة من الشعراء، منها يوسف الخال وخليل حاوي وأدونيس، تغيَّر في كثير من مفاهيم الشعر العربي سعياً إلى حداثة فيه ومعاصَرة وتجديد إبداعيّ.

ما برح سعاده يقف بشموخ فذّ بين مفكّرين ورؤيويين ومؤسّسي نهضة قلّة عرفهم ناس بلادنا.

*أمين عام اتحاد الكتّاب اللبنانيين

العودة إليه

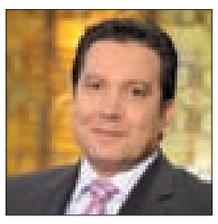

■ زاهي وهبي*

لم أجدْني يوماً قريباً من فكر أنطون سعاده كما حالي اليوم. الزلزال الدموي المدمّر الذي خلخل الكثير من الأفكار والقناعات مثلما خلخل الكيانات والخرائط، قرّبني من أنطون سعاده وفكره، خصوصاً لجهة الاعتقاد بخصوصية ما لهذا المشرق العربي، خصوصية تمنحه سمات وعلامات فارقة وتجعله أكثر جاذبية للدسائس والمؤامرات وللهجمات المتوحشة التي تشنّ عليه وعلى أهله ومكوّناته كل بضعة عقود.

كان سعاده من أوائل الذين أدركوا أهمية هذا المشرق وغنى مكوّناته وتنوّع مصادره المعرفية والثقافية، ورسوخ جذوره الضاربة في تربة التاريخ الخصبة المجبولة دائماً بدماء بنيها للأسف.

أجدُني أقرب من أيّ وقت مضى إلى فكر سعاده، إلى رؤاه الثاقبة بعيدة المدى، لا سيما إدراكه المبكر والواعي مخاطر «سايكس ـ بيكو»، وترابط هذا المشروع التقسيمي مع مؤامرة «وعد بلفور» ونشوء الكيان الصهيوني الغاصب على أرض فلسطين المحتلة. ولعلّ هذه الرؤى الاستشرافية لما سيكون، قد عجّلت في قرار اغتياله إعداماً بتلك الطريقة الخسيسة تحت جنح الظلام في ليل الغدر والتآمر.

كم أتمنّى أن تُعاد قراءة أنطون سعاده على ضوء ما تعيشه بلادنا اليوم، وما تتعرّض له من هجمة استعمارية رجعية دنيئة تهدف من جملة ما تهدف إلى إنشاء كيانات طائفية ومذهبية محيطة بكيان الاحتلال «الإسرائيلي» لتبرير هدفه الرامي إلى ترسيخ يهودية الدولة العبرية الغاصبة. صحيح أن الهجمة الرجعية الظلامية لا تطاول المشرق العربي وحده، إنما بلاد العرب من المحيط إلى الخليج، لكن خصوصية المشرق وتنوّع مكوّناته، وضرورة الحرص على هذه المكوّنات، كل ذلك يجعله قاعدة مهمة للمواجهة الطويلة الضارية مع الفكر الظلامي وقواه المتوحشة، ونموذجاً لمقاومة تشترك فيها جميع القوى المتنوّرة التي تجد نفسها على تناقض وجوديّ مع أهل الظلام.

لعلّ السعار الطائفي والمذهبي القاتل، والتطرّف الديني العائد بنا إلى مرحلة قروسطية مظلمة، يفرضان علينا البحث عن كوى ضوء وسبل خلاص للخروج من هذا النفق المسطوم. وهنا يبدو لي أن فكر أنطون سعاده في مقدّم الحبال التي يمكن لنا الاعتصام بها، طبعاً مع البحث عن القواسم المشتركة مع القوى التقدّمية والوطنية والقومية الأخرى.

لقد انتهى زمن الايديولوجيات الأحادية الجامدة والإلغائية والإقصائية، وبعض ما نعيشه اليوم هو نتيجة فشل تلك الايديولوجيات التي أقفلت التاريخ وراءها. ولعلّ ذكرى استشهاد سعاده تشكّل جرس إنذار لكل القوى التنويرية والعلمانية لاستنهاض نفسها والقيام من كبوتها التي طالت، عبر إجراء مراجعة نقدية صارمة لكلّ التجربة الماضية. فالحاجة ماسّة اليوم إلى تيار تنويريّ جامع عابر للطوائف والمذاهب، تيار مشرقي يجد في أفكار سعاده نواته الصلبة ويتلاقى مع القوى التنويرية الأخرى على امتداد العالم العربي. إذ لا خلاص لهذه الأمة بغير نهضة ضرورية عاجلة وملحّة. والنهضة المنشودة لا يمكن للسياسة أن تحققها في معزل عن الفكر والثقافة. وسعاده يمثل نموذجاً رائداً للسياسيّ المفكر المتنوّر الذي لا نملك في يوم ذكراه إلا أن نستلهم من إرثه الفكري والنضالي ما يسعفنا في المواجهة والمقاومة حتى ينتصر النور على الظلام، وهو فاعل لا محال.

* شاعر وإعلامي لبناني